الرُّعب

عطاءٌ و إحسان 2024

العنوان : الرُّعب .

تأليف: أيمن العتوم .

عدد الصفحات : 416 – قياس الكتاب : 14×20 سم .

حُقوقُ الطَّبعِ مَحفُوظة

يُمنع إعادة نشر أو طباعة أو تصوير الكتاب أو سحب نسخ الكترونية منه وتوزيعها ونشرها دون إذن خطّي من الناشر وأي مخالفة مما ذُكر يُعتبر إساءة لحقوق الملكية الفكرية للناشر والمؤلف ويُعرّضُ فاعله للمساءلة القانونية والشرعية

دار الغوثاني

ALGWTHANI®
KiTABEVi

دمشق - سورية / SYRIA
+963 944 453 638

إسطنبول - تركيا / Turkey
+90 541 898 36 88

بيروت - لبنان / LEBANON
+961 78 920 707

info@gwthani.com - www.gwthani.com

أعضاء في :
- اتحاد الناشرين السوريين
- اتحاد الناشرين العرب
- اتحاد الناشرين الأتراك
- نقابة اتحاد الناشرين في لبنان
- جمعية الناشرين الإماراتيين
- جمعية ناشري الكتاب العربي في تركيا
- الرابطة الدولية لصناعة النشر العربي

معًا لنشر الكتاب الهادف

جميعُ إصداراتنا متوفرةٌ إلكترونيًا على :

منصة كتابي الهادف

info@kitabialhadif.com
+90 552 560 77 31

معًا لتسويق الكتاب الهادف

شركة إمداد لتوزيع الكتاب حول العالم

info@imdat-books.com
+90 544 523 98 74

أيمن العتوم

الرُّعب

حكاية الحرب في غزّة ٢٠٢٣-٢٠٢٤م

ALGWTHANi®
KiTABEVi

كلمة الناشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين الذي انتدبنا لجهاد أعدائه واختار منا الشهداء إلىٰ جواره، وتفضل علينا بأجر المرابطين والمجاهدين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا المجاهد الشهيد وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد : فقد عزمت دار الغوثاني بأن تنحو بمحاولة جديدة ورائدة في عالم الرواية الهادفة من تأليف وترجمة بين اللغات الأخرىٰ، وكانت الروايتان الأولىٰ والثانية مترجمة من اللغة التركية للعربية (جدي السلطان عبد الحميد - كنت سلطانـًا فغدوت فاتحـًا).

وتشرَّفت الدار بهٰذه الرواية الثالثة -**الرعب** (حكاية الحرب علىٰ غزة)- بأن تكون لها السبق في سرد قصة من واقع الحقيقة من خلال استخدام نمذجة الخيال من بين آلاف القصص في الحرب الغاشم علىٰ غزة (العزة) بقلم بل بقلب الكاتب الكبير الأستاذ **المبدع أيمن العتوم** رعاه الله، الذي أكرمنا الله بالتعاون معه في هذ الرواية، ونتشوق بالتعاون بروايات أخرىٰ ماتعة مثل أخواتها، وهٰذا الرواية جسدت جزءًا مما يحدث علىٰ أرض الواقع الأليم، بطريقة قصصية تغوص في أعماق القارئ وتلامس شَغاف قلبه، ونقله إلىٰ قلب الحث كأنه يعيشه بكامل أحاسيسه.

الناشر

إسطنبول ٦-٧-٢٠٢٤

(٠) الكتابةُ عملٌ ثوريٌّ

أنا فرج أبو العوف. وُلِدتُ عام ١٩٧٤م، من حي الرّمال في غزّة. ليسَ لديّ شيءٌ أخسره، لأنّني خسرتُ كلّ شيءٍ، ولم يتبقّ لي ما يُمكن أنْ يكونَ وليمةً لهٰذا الخسران الّذي لا ينتهي. لم يتبقَّ في رصيدي سِوىٰ أحزاني، وأنا مُستعدّ أنْ أخسرها باللامبالاة نفسِها الّتي خسرتُ فيها وطني كلّه!

نحنُ في غزّة نعيشُ في سجنٍ كبير، مُحاصَرون من إخوتنا العرب قبل أنْ يُحاصرنا الكيان الغاصب. هٰذه الحكاية البائسة ليس فيها أيّ فائدةٍ كبيرة، لو كان لي أبناء أو أحفاد لكتبتُها من أجلهم، ولٰكنّني مقطوع من شجرة، وأنا اليوم جذعٌ يابسٌ مَرميّ على الطّرقات.

كنتُ أعمل في مهنة التّمريض أيّام كانتْ زوجتي علىٰ قيد الحياة، في منتصف مايو من عام ٢٠١٩م قُصِفنا بعشرة صواريخ أو عشرين أو ثلاثين لا أدري، لا يهمّ الرّقم ما دامت النّتيجة واحدة؛ قُتِلَ كلّ مَنْ له علاقةٌ بعائلتي، زوجتي في مقدّمة الشّهداء، وإخوتي، ووالِدَاي، وعشرون آخرون من أعمامي وأولادهم وزوجاتهم.

أنا النّاجي الوحيد أو قُلْ الباقي الوحيد، فتعريف النّاجي هنا يختلفُ بحسب الوجع المُخثّر أو الرّاحل، وإذًا؛ فأنا الباقي الوحيد من هٰذه العائلة في هٰذا الحيّ الّذي يحكي قِصّة البُؤس من أكثر من سبعين عامًا أوّلَ ما تأسّس. لا أريدُ أنْ أشغلكم بحياتي التّافِهة كثيرًا، ولٰكنّني قررتُ أنْ أنقل لكم – ما استطعتُ – الحرب علىٰ غزّة الّتي ابتدأتْ بعدَ السّابع من أكتوبر

من هٰذا العام، عام ٢٠٢٣م. في الحقيقة لم أكنْ أريدُ أنْ أكتبَ هٰذه الحكايات من أجل أنْ أوثّق هٰذه الفترة الّتي عايشْتُها، فأنا أزهدُ النّاسِ في ذٰلك، ومَرَدُّ زُهدِي إلىٰ أنّنا نعيشُ في غزَة كلّ يومٍ بل في كلّ ساعةٍ ودقيقةٍ مذبحةً أو هدمًا أو تشريدًا. فماذا سأكتبُ وماذا سأنتقي؟ وعمّن سأتحدّث؟ وهل يُمكن أنْ أحيطَ بكلّ هٰذه المآسي الكبيرة المُتجدّدة؟ أشعرُ أنّني لو انتقيتُ جرحًا وكَتبْتُه فإنّني بهٰذا أخونُ جرحًا ثانِيًا أو ثالِثًا في فؤادي الّذي تهتّكَ لكثرةِ ما فيه من جِراح. ولو انتقيتُ ألفَ قِصّة من قصص المأساة، تخيّلوا ألفَ قِصّة فإنّني بهٰذا أخون آلاف القصص الأخرى الّتي كانتْ أكثرَ وجعًا، ولٰكنّني لم أكنْ شاهِدَ عِيانٍ عليها!

نحنُ شعبٌ مكتوبٌ عليه أنْ يظلّ ينزف ويمشي، ولا بُدّ أنّه في نهاية هٰذا المَمشى الطّويل سوفَ ينتهي الدّم الّذي فيه ويسقط، غير أنّ الخيطَ الّذي امتدّ على التّراب من هٰذا الدّم النّازف يُنبِتُ كلّ يوم شهيدًا أو مُقاتِلاً أو ناقِمًا أو حاقِدًا. المشكلة أنّا جميعًا ننزف في غزّة، وأنّنا جميعًا نُنجِبُ هٰؤلاء المُقاوِمين الّذين سينزفون في القريب العاجل من جديد، ولا أدري متىٰ يتوقّف كلّ هٰذا... أعودُ لأذكر لكم لماذا أكتبُ هٰذه الحكايات.

السّبب بسيطٌ وموجعٌ في الوقتِ نفسِه؛ حينَ قصفت الطّائرات الإسرائيليّة حيّنا في عام ٢٠١٩م كما حدّثتُكم، كنتُ رئيسًا لقسم التّمريض في مستشفى الشّفاء، وقد مضىٰ علىٰ عملي في هٰذه المهنة ما يقربُ من ربع قرنٍ قضيتُها في معظم مستشفيات غزّة القديمة والحديثة. جاءني خبرُ القصف للحيّ، فعرفتُ أنّ بيتَنا لأنّه في القلب سيكون قد دُمِّر بالكامل. لأكنْ صادِقًا، أوّل ما خطَر علىٰ بالي زوجتي، إنّها أثمنُ ما يُمكن أنْ أفقده، ثُمّ قِطّتنا الذّكيّة. هٰكذا كانتْ تجري حياتي. ليسَ مُهِمًّا

أنْ أقول لكم إنّ البيت الّذي سُوِّيَ بالأرض لم يخرجْ منه أحدٌ.

هُرِعْنا أنا وعددٌ من سيّارات الإسعاف ومجموعة من الأطبّاء والمُمرّضين إلى المكان. لم أشاهدْ عمارتنا السّكنيّة في مكانها. كانتْ هناك بدلاً منها كومة من القُضبان الحديديّة والإسمنت والأغبرة السّوداء، وحرائق صغيرة تتراقص هنا وهناك.

نزلتُ كأنّني أنزلُ على شاطِئٍ نظيف مُهيّأٍ للاستِجمام، كانتْ عيناي ساهِمَتين، لا أشعر بشيء، سِرْتُ وسطَ الرُّكام بشكلٍ هادِئ، أو قُلْ إنّه يبدو كذلك، لم أبكِ، ولم أرتجفْ، ولم أصرخْ، فقط كنتُ أسمعُ ضجيجًا عالِيًا في أذنَيّ. ثُمّ بدأ المُسعِفون بإخراج الجُثث، هذه جُثّة أخي ناصر، وهذه جُثّة أختي منال، وهاتان جُثّتا ابنتَيها، وهذه الجُثث الثّلاث تعود لبدر وسعاد ولين أولاد أخي الأكبر سليم، وهذه... كنتُ أراقبُ الجُثث وأعدُّها بشكلٍ رتيب، كأنّني أسخر من الواقع الّذي أراه، أو كأنّني أركلُه بقدمي قائلاً له: «فلتذهبْ إلى الجحيم أيّها الواقع المريض». وتتابَع سَيْرُ الجثث الّتي تخرج، كانتْ زوجتي هي الجثّة العاشرة... مُسّجاة على النّقالة، يحملها اثنان يتهادَيان بها، تتموّج وسطَ الرُّكام، كنتُ لا أزال وسطَ لا مبالاتي، حينَ صارتْ بمحاذاتي، فتحتُ عينَيّ أكثرَ لأتأكّد أنّها هي، تأكّدتُ من أصابعها، وفجأةً سقطت.

صحوتُ بعدَ ستّ ساعاتٍ في المُستشفى. «أينَ رجاء؟!» هتفتُ كالملدوغ. هدّأ من روعي زميلي في المهنة (بسّام مكّي)، وقال كأنّه يسوق لي خبرًا عاديًّا: «البقيّة بحياتك». «رجاء لم تمتْ»، صرخت. ظلّ مُمسِكًا بيدي يُحاول تهدئتي. لم أصدّق أنّ حبيبتي يُمكن أنْ تموت، لا أدري كيفَ صدّقتُ أنّ عائلتنا عائلة أبو العوف قد أُبيدتْ بكاملها،

وأنّ واحدةً من هٰذه العائلة ستنجو وأنّها لا يُمكن أنْ تموت؟ لماذا؟ أهي امرأةٌ خالِدة أو مُخلّدة؟ لِمَ لا أصدّق حتّىٰ ساعة كتابة هٰذه الحكايات أنّها ماتت؟ لا أدري. ربّما لأنّها كانتْ تُمثّل بالنّسبة لي عالَمي كلّه، والعالَم لا يُمكن أنْ يموت فجأة ومرّة واحدة، لا بُدّ أنْ يموت علىٰ مراحل، أمّا أنْ ينتهي بهٰذه السّرعة الخاطِفة، فهو أمرٌ فوقَ التّصديق، أرأيتَ لو كانَ هُناكَ حريقٌ سطا علىٰ غابةٍ كثيفةٍ من الأشجار، إنّ نيرانها ستلتهم الشّجرة الأولىٰ ثُمّ الثّانية، وقد يصل إلى العاشرة أو أكثر أو أقلّ قبل أنْ يتمكّن عُمّال الإطفاء من السّيطرة على الحريق ومنع امتداده، أمّا أنّ تسقطَ آلاف الأشجار في الغابة مع أوّل شرارة فمن الّذي يُمكن أنْ يُصدّق ذٰلك؟! لقد كانت بالنّسبة لي أكثر من ذٰلك، كانتِ الذّكريات الجميلة، اليد الحانية، الصّوت الملائكيّ، البسمة المُشرِقة، الرّضا بالقليل، وانتظار المولود الّذي لم يأتِ، والأيّام الحلوة والمرّة، والسّهر والتّعب، والجَمال والجَلال، وأيّام العُطل على الشّاطِئ، وأيّام الرّكض في ساحات الحياة الغامضة، لقد كانتْ لي ذٰلك كُلّه وأكثر، فهل يُمكنُ أنْ تُصدّقوا أنّ هٰذه العوالم جميعها تنهار دُفعةً واحدة؟!

قفزتُ من فوق السّرير ورحتُ أجري وأنادِي: «رَجاء... رَجاء...» وحينَ ضمّني من الخلف (بَسّام)، همسَ في أذني: «احتسبْها عند الله». «أريدُ أنْ أراها». «عليكَ أنْ تكون قويًّا». «أريدُ أنْ أراها». «لله ما أعطىٰ ولله ما أخذ». «أريدُ أنْ أراها» وصرختُ هٰذه المرّة صرخةً جعلتْه يشعر بالخوف. أرسلَ زفرةً طويلة، ونظر حولَه واقتربَ منّي وهمس: «إنّها في ثلاّجات الموتىٰ». «أريدُ أنْ أراها يا بَسّام» قلتُ بإصرار أشدّ. تلفّتَ حولَه مرّةً ثانية. «سآخذكَ إليها في المناوبة اللّيلة». «أريدُ أنْ أراها الآن». ولم

يتحمّل أكثرَ من ذلك، ولم يجدْ بُدًّا من أنْ يرضَخَ لي، مضى بي إلى هناك، بعدَ أن استرقَ مفتاح غرفة الثّلاجات، أشار إلى الرّقم (١٣): «إنّها هنا». أغلقَ الباب عَلَيّ وتركني وحدي مع هٰذا العدد من الشّهداء، لم يكونوا جُثثًا كانوا غيومًا مُسافرة في سماءٍ لا نهائيّة، وكنتُ طيرًا مقصوص الجناحين أتسمّر في مكاني أحاول أنْ أحرّك قَدَمَيّ الجامدتَين. بعدَ محاولاتٍ فاشلة تمكّنْتُ من نقل خطواتي من وسط غرفة الثّلاجات إلى حيثُ ترقدُ الطّاهرة الشّهيدة.

اقتربتُ بتوجّس، وقبل أنْ أفتحَ بابَ الثّلاجة ذات الرّقم (١٣)، شعرتُ بالبرد، ورحتُ أرتجف، وراحتْ ساقاي ترتجفان تبعًا لذلك، وسالَ على خَدَّيَّ دمعٌ غزيرٌ كأنّما فُتِحَتْ له مجارٍ واسعة، تمالكتُ نفسي قليلاً، سحبتُ الدُّرج ببطء، ومن هناك فاحتِ الرّائحة الّتي أعرفُها، إنّها رائحتها الّتي امتزجتْ بخلاياي طَوال عقدَين من حياتي معها. فجأةً تتمدّد هٰذه الحبيبة بكلّ هٰذا الهدوء في هٰذا الثّلاّجة الباردة، نزعتُ القميصَ الّذي ألبسه، ولففتُه عليها: «لا بُدّ أنّكَ تشعرين بالبرد يا حبيبتي». هل يشعر الموتى بالبرد؟ كانتْ مُبتسمة. هل يبتسم الموتى؟ ربّما خُيّل إليّ ذلك، لكنّني رأيتُها تبتسمُ على الحقيقة، ورأيتُ شفتَيها تتحرّكان، ولا أدري إنْ هُما هَمَسَتا أو أنّني سمعتُ ذلك منها حَقًّا: «لا تترك حياتَكَ تذهبُ سُدًى». وسألتُها وأنا أضعُ خَدّي على خَدّها وأبكي بصمت: «وماذا أفعل بدونك؟!». «اكتبْ ما رأيت». ماذا أكتبُ والجراحُ كثيرةٌ والموتُ يرقصُ في الضّلوعِ وينتشي... ونمت وهي لا تزال تهمسُ في أُذنَيّ بكلماتٍ من حريرٍ حزين، نمت أو أُغمي عَلَيّ، أو أنّني ذهبتُ إلى عالَمٍ آخر، لقد رأيتُ حياتنا الجميلة السّابقةَ كلّها في ذلك الحُلم. ولم يُوقِظني منه إلاّ (بَسّام)

في صبيحة اليوم التّالي، كي يأخذوا الجثث كلّها إلى المقبرة لِتُدفَن.

رجعتُ في ذلك المساء الجنائزيّ إلىٰ بيتنا المُهَدَّم، بقيتُ أسبوعًا وأنا في الرّكام أبحثُ عن بقايا من بقاياها، شالِها، ربطةِ شَعرها، وِسادتِها، صوتِها... وأكثرُ ما بحثتُ عنه عيناها.

لم أخرجْ من الرّكام يومًا واحِدًا. عَرضَتْ عَليّ بعضُ المنظّمات الخيريّة أنْ تبني البيت. قلتُ لهم: «أزيلوا فقط الرّكام. وضعوا بابًا من دون نافذة على الغرفة الّتي كانتْ تبيت فيها زوجتي». فعلوا. وانقطعتُ أنا عن العالَم. لزمتُ غرفتها أربع سنوات، علىٰ جدار الذّكريات أُسند رأسي، وعلىٰ سرير الأمنيات أُريح جسدي، تقاعدتُ بعدَ أسبوعٍ من الحادثة، وأغلقتُ غرفتي علىٰ نفسي طيلة هٰذه السّنوات. واليوم؟! أنا أكتبُ هٰذه الحكايات من أجل عينَيها، ولهما فقط، لأنّهما في تلك الثّلاجة المقرورة في ذلك اليوم البيئس قالتَا لي: «اكتبْ يا فرج... اكتبْ... الكتابة عملٌ ثوريٌّ كذلك».

(١) الطُّوفان

إنّها فَراشةٌ مُكبَّرةٌ ألفَ مرّة أو أكثر بطريقة الذّكاء الاصطناعيّ. ليس هٰذا حقيقة. وهم. خيال. خُدعة بصريّة. مَنْ يُصدّق أنّ هٰذا سيكون أبلج الحقائق المُمكنة في عالَم الزّيف المُستقرّ في كنف هٰذا الكوكب التّائه؟! الحقيقة الأنصع في هٰذه الحياة المليئة بالأكاذيب والتّرّهات والخمول والسّكون والبلادة والصّمت؟!

الرّكون إلىٰ عدم التّصديق في مثل هٰذه المواقف أسهل بكثيرٍ من التّصديق. التّكذيب راحة؛ راحةٌ للضّمير، راحةٌ للعين، والأهمّ راحةٌ للعقل الّذي لو راحَ يُفكّر قليلاً أنّ هٰذا يُمكن أنْ يحدث فسيُصاب بالدُّوار، ولو فَكّر أكثر فسينفجر. وأنا؟ لا أريدُ لعقلي أنْ ينفجر، أريدُ أنْ أرتاح. لقد تقاعَدْتُ من مهنة التّمريض من أجل أنْ أرتاح، صحيحٌ أنّني في أواخر الأربعينيّات من عمري، ولكنّني شاهدتُ في غُرَف العمليّات وفي المستشفيات ما يجعل الوِلدان شِيْبًا، ولذا قرّرتُ أنْ آخذَ استراحةً من رؤية الدّم، وأنام ما تبقّىٰ لي من العُمر في بيتي، لا أخرجُ منه ألبتّة! الرّاحة من اللّون الأحمر الّذي صار يُسبّب لي ضيقًا في الصّدر وحُزنًا واستفزازًا كلّما رأيتُه من جديد، من أجل هٰذا أنا هنا؛ أُغلق علىٰ نفسي باب بيتي، وأنقطعُ عن النّاس، ولا أريدُ أنْ أرىٰ أحدًا!

زوجتي – الّتي لم تُنجِب ماتتْ في قصف بيوتنا – كما قلتُ لكم – عام ٢٠١٩م في عمارة آل أبو العوف، أرسلَ الجيش الإسرائيليّ بصواريخ الموت حوالي ثلاثين من عائلتي إلى الآخرة، هكذا فجأة، في غَمضة عينٍ، في غفلة من هذا العالَم المجنون المريض القاتل، صاروا على الضّفّة الأخرى. من يومِها وأنا أقول في كلّ يوم: أريدُ أنْ أرتاح، أريدُ أنْ أتركَ هذه الذّكرى الأليمة ورائي، وأنظر إلى ما تبقّى من حياتي لأعيشه وحدي بوتيرةٍ أقلّ ألمًا وصخبًا من حياتي السّابقة، ولكنّني هربتُ من الذّكرى إلى الذّكرى، كان صوتُ زوجتي يُناديني في ليالي البرد وأنا وحيدٌ في غرفتي، فيدخل إلى حَزّ العظم، وإلى مجرى التّنفس، اختناقٌ فظيعٌ وآلامٌ أفظع. وإذًا؛ كيفَ يُمكن للإنسان العاشق أنْ ينسى؟!

وَلْنَعُدْ إلى الفراشة الّتي رأيتُها صباح اليوم، مُلَثَّم، يرتدي البِزّة العسكريّة، مَشدود الجِسم، أمسكَ سربًا من النّمل، لا أدري، ربّما هي شبَكَة صغيرة مَطويّة بحجم قبضة اليد أو هي أصغر، وأطلقَها بهدوء وثِقة كأنّه يلعبُ مع ابنٍ له، انطلقتِ الشَّبَكَةُ من يدِه، كان ضوء الفجر يصعدُ في الأفق البعيد، لم يكنِ اللّيل قد لملم سِربالَه كامِلاً، بدا هذا المُلَثَّمُ شَبَحًا، ولكنّه – مع انشِقاق أولى خيوط الضّوء الّتي التقتْ به فشَكّلتْه على هيئة ظِلٍّ غامضٍ أكثر منه رجلاً حقيقيًّا، وأحاطتْه بالسّوادِ الجُزئيّ – بدا شَبَحًا أليفًا. كبرتْ قبضةُ الخيوطِ الّتي أطلقَها، تشكّلتْ شبَكَةً من الخيوط الّتي راح مجالُها يتّسع. على الطّرف الآخر كان هناك اثنان يُراقِبان المشهدَ كأنّهم رأوه عشرات المرّات قبل هذا، مشهدٌ غريبٌ سورياليّ لا يفهمه إلاّ من اعتادَ رؤيته، كان هذان يقفان يُمسك كلّ واحدٍ منهما بيُمناه جهازًا لا سلكيّا فيما يبدو، ويعقد يُسراه على جذعه كأنّه

في حالة نُزهة. كبرتِ الشّبَكَة، أخيرًا انكشفَ شيءٌ من الغُموض الذي أحاطَ بها أوّل الأمر، إنّها خُيُوطٌ لطائرةٍ شراعيّة، ليستْ طائرة؛ مَنْ قال ذٰلك؟ إنّها مِظلّة مصنوعةٌ من قماشٍ محلّي، رُبّما أُخِذتْ رُقَعُه من قِماشٍ قديمٍ لم يعدْ يسترُ أجسادَنا العارية. كانتْ تُشبه في انحناءَتها موزةً عمِلاقة. رَبطَ أحدُهم خُيوطَها المتّصلة بها إلىٰ بِزّته العسكريّة، وركبَ درّاجةً لا يُمكن أنْ تراها إلاّ في هٰذه الشّواطِئ، الشّواطِئ القادرة علىٰ صُنع المُستحيل، والمُبهِر، والمُعجِز في آنٍ واحدٍ، شواطئ غزّة الّتي تلدُ - مثلَ اللّيالي - كلّ عجيبة. جاءَ أحد المُلثّمين - كأنّه يريدُ أنْ يُعانقَ غائبًا أو يُصافِحَ صديقًا - إلى الفراشة المركّبة علىٰ ظهر هٰذه الدّراجة، نسيتُ أنْ أقولَ لكم إنّ هٰذه الدّرّاجة ذات دَفْع ثلاثيّ، عجلاتُها الثّلاث تُشبه عجلات عربةِ نقل الباطون، وهي بلا جِسْمٍ واضح، مجموعة من قُضبان الحديد المتفاوتة في الحجم، ومقعد وثير للطّيّار الّذي سيقودها يتألّف من خشبةٍ بلا إسفنجة... أينَ كنتُ؟ كنتُ أقولُ جاء أحدهم إلىٰ صديقٍ غائبٍ، فأرادَ أنْ يُصافَحه، فَمَدَّ ذراعَه القويّة، وحرّكَ الفراشة الّتي تلتصق بظهر الدّرّاجة، لا أدري كيفَ راحتْ هٰذه الفراشة تدور بسرعة، كأنّها تلقّتْ تيّارًا كهربائيًّا صاعِقًا من ذراعٍ قويّةٍ حتّىٰ راحتْ تدور بهٰذه السّرعة المُذهلة، أو كأنّما كانتْ تنتظر لَمسةً حانيةً وقبلةً حارّة تطبعها أصابع ذٰلك المُلثّم الّذي تعرفُه ويعرفها من أجل أنْ تدور حول مركزها كما يدور الصّوفيّ المَجذوب.

دارتِ الفراشة الّتي في الخلف هٰذه الدّورات السّريعة، وتقدّمَ اثنان من المُلثَّمين يجرّان العربة من الأمام، وفيما كان هٰذان الاثنان يدفعان العَرَبة بهٰذه الطّريقة الغريبة، كانتِ المِظلّة ترتفع في السّماء بتلك الخُيوط

الّتي أُطلقتْ من ذلك السّاحر المُلثَّم أوّل الأمر. دَرَجَتِ الطّائرةُ العَرَبةُ على الرّمال بِضعةَ أمتار، ثُمّ رَفَعتْها المِظلّة الّتي تُشبه الموزة، تأرجحتِ العربة يمنةً ويسرةً قليلاً قبل أنْ تستوي في الأفق الصّاعد، يا إلهي إنّها تُشبه الطّائرة الحقيقيّة، إنّها تتأرجح في صعودها كتأرجحها، هل صرنا في غَزّة المُحاصرة قادرين على صناعة الطّائرات ببضعة شيكلات؟!

لم تكن هٰذه الطّائرة الغريبة المُهَجّنة وحدها، كان في السّاحة الرّمليّة عددٌ منها، وكلّ طائرةٍ تُسابِقُ الأخرىٰ لتُؤكِّدَ نجاح عمليّة الإقلاع. أهٰكذا يكونُ أثرُ الفراشة؟ «من هنا، الكاميرا من هنا». كان هٰذا الطّيّار يُوجّه الكاميرا أم يوجّه الطّائرة الغريبة؟! لا أدري، أعتقدُ أنّه لم يكنْ يهتمّ بالتّصوير بقدر ما كان مُهتمًّا بالهدف، وإنْ كان التّصوير مُهِمًّا من أجل أنْ يرى العالَم جزءًا من هٰذا المشهد السّوريالي الّذي أنتَجْته عقليّةٌ عبقريّة.

يا إلهي، هٰذا المشهد لأوّل مرّة يُمكن أنْ يُرىٰ في سَماء غزّة، عشرُ طائِرات على الأقلّ بعجلاتٍ عربات الباطون، بمِظلاتٍ موزيّة، براكبٍ واحدٍ، بقناعٍ أسودَ وعصبةٍ خضراء، بأذرع مفتولة تُمسِك بخيوطِ اللّعبة، تطير في هٰذا الكرنفال الأقرب إلى احتفال دولة أوروبيّة بسباق المناطيد... كان الجِدار العازِلُ الضّخم العالي قد بدا من هٰذا العُلُوّ كما لو كانَ ألواحًا من الخُشُب المُسنّدة غير قادرةٍ أنْ تقفَ في وجه هٰذه الطّائرات، ثُمّ... ثُمّ هبَطوا.

هبطوا في كلّ مكان، في (الكِيبُوتْسات) الّتي كانتْ تضمّ أمثالَ مؤسّسي الكِيان الأُوَل، بن غوريون وجولدا مائير وإسحاق رابين وغيرهم... دخَلَ عددٌ منهم مبنًى يبدو أنّه سجن، أطلقوا العيارات النّاريّة وفتحوا الأبواب والزّنازين، واندفق من هناك موجٌ بشريٌّ غاضب، وفيما

كانتْ جرّافةٌ غريبةٌ تُزيل الأسلاكَ الشّائكة، كانَ عددٌ من المُلثّمين يركبون درّجاتٍ ناريّة لا أدري من أينَ جاؤوا بها يتجوّلون في شوارع المُدُن النّظيفة، ويُخرِجون النّساء والأطفال، يقتلون الرّجال، ويقتادون عددًا آخر منهم إلىٰ سيّارات يُدخلونهم فيها، ويرحلون.

علىٰ جانبٍ آخَر، في شارعٍ رمليّ لم يره المُلثّمون من قبل، كان بضعةُ مُسلّحين منهم يصعدون ظهر الدّبّابة ويُخرجون مَنْ فيها ويقتادونهم، جرّب أحدهم أنْ يقودَ الدّبّابة، ولكنْ إلىٰ أين؟! هل كان يعرفُ كيفَ تُقادُ الدّبابّة؟! بدتِ الدّبّابةُ - في هٰذا المشهد الّذي لا يُصدّق - ترقص علىٰ رِجلْ واحدة؟! منْ رأىٰ منكم دبّابةً ترقصُ من قبل؟! هل كانتْ تلكَ رقصتَها الأخيرة قبل أنْ تُذبَح، أمّ أنّها كانتْ تشعر بالانتِشاء مثلهم؟!

من هنا، من هٰذا المشهد الّذي يرصُد حركة الشّوارع، كانت السّماء تعجّ بِمِئات الصّواريخ الّتي تذرعها مُخلّفة وراءَها هديرًا غريبًا وخُيُوطًا من الغيوم البيضاء الرّفيعة، وعلى الأرض بدا عددٌ كبيرٌ من مواطني تلك المُدُن يركضون مذعورين في الطّرقات، من لباسِهم يُمكنك أنْ تعرفَ أنّهم غرباء عن هٰذه الأرض، وأنّهم أُلصِقوا بها إلصاقًا. كانت الأرضُ تتقيّؤهم بشكلٍ مُتتابِع!

(٢) أريدُ أنْ أختفي... ولكنْ!!

بدأت العمليّة الّتي سَمَّتْها حركة المُقاومة بـ (طوفان الأقصى) السّاعة السّادسة صباحًا. وخلال أقلّ من نصفِ ساعةٍ، في تسعةٍ وعشرينَ دقيقةً بالضّبط. كانت المُستوطنات القريبة من غلاف غزّة تعجّ بالفوضى والقَتْلى.

قُتِلَ المِئات أو الآلاف، لا أحدَ يُحصي العمليّة المجنونة الآن. أُسِرَ عددٌ كبيرٌ من الجُنود والضُّبّاط ومن الرّجال. الجدار الحصين الّذي كانتْ تختبِئ خلفه إسرائيل انهار كأنّه جِدارٌ من ورقٍ أو من طينٍ طريّ، ذاب كما يذوب الشّمع إذا تعرّض للفحةٍ من نارٍ هائلة!!

صَفّارات الإنذار الّتي تدوّي إلى هٰذه اللّحظة بدتْ من غير فائِدة، فالمُقاوِمون الّذين دخلوا إلى هنا أخذوا كلّ ما يريدون من الأسرى والمعلومات وعادُوا. أجهزة الإنذار، والرّادارات الّتي تلتقطُ دبيب النّملة لم ترصدْ شيئًا حتّى الآن. كيفَ دَخَل هٰؤلاء المُلثّمون وكيفَ خرجوا؟! لا أحد يدري. من أينَ نَبَتُوا؟! كيفَ تسلّلوا؟ هل حفروا أنفاقًا تحتَ هٰذه المُستوطنات وخرجوا منه؟! لا أحدَ يدري. أهم جِنٌّ أم بشر؟! لا أحدَ يدري. هم أقربُ إلى الأشباح. مَنْ يستطيعُ أنْ يقتل شبحًا فضلاً عن أنْ يُصوّب نحوه أو يراه؟! كيفَ للرادار الّذي له ألفُ عينٍ أنْ يكونَ أعمى؟! وكيفَ تُصبحُ آذانه المُوجّهة إلى الجهات السّتّ صَمّاء لم تسمعْ شيئًا؟! لا أحدَ يدري.

كان يبدو أنّنا سنذهبُ إلىٰ حربٍ جديدةٍ مُختلفةٍ هٰذه المرّة، الحروب السّتّة السّابِقة ستبدو نُزهةً أمام هٰذه الحرب القادمة. إنّها حربٌ طاحنةٌ ضَروس ستبتلع كلّ شيءٍ في طريقها. ولٰكنْ لماذا أكترث؟! لتنطبق السّماء على الأرض، وليبدأ الجحيم، أكنتُ في معزلٍ عنه فيما مضىٰ؟! إنّني منذُ رحلتْ (رجاء) لا زلتُ أعيشُه إلى اليوم!

كانتِ السّاعة الثّامنة صباحًا حينَ رأيتُ علىٰ شاشة التّلفاز هٰذه المناظر الّتي لا تُشبه شيئًا، ولا يُمكن أنْ تُعطيها وصفًا. شعرتُ ببرودةٍ في قَدَمَيّ، سحبتُ عليهما الغِطاء، ونمت، كأنّني شاهدتُ فيلمًا سينمائيّا، نمتُ وأنا أغرقُ في حيرتي. هل أنا أهربُ بالنّوم مِمّا سيأتي؟!

صحوتُ من جديدٍ في الحادية عشرة سمعتُ بيان (محمّد الضّيف) الّذي يُعلن فيه بدء عمليّةٍ عسكريّة، سمّاها (طوفان الأقصىٰ). قال إنّ الضربة الأولى استهدفتْ مواقع العدو ومطاراته ومواقعه العسكرية وتجاوزت الـ (٥٠٠٠) صاروخ. الصّواريخ يصنعونها من الرّمال في غَزّة، هل لديه مثلاً مليون صاروخ حتّىٰ يبعثَ في الرّشقة الأولىٰ هٰذا العدد؟ من أينَ يأتون بكلّ هٰذا؟! هل مساحة القِطاع قابلةٌ لأنْ ينطلقَ منها كلّ هٰذا الهَول؟! لو وُزِّعتْ هٰذه الصّواريخ علىٰ أرضِ غَزّة فإنّها ستُغطّي كلّ شبرٍ فيها، بل كلّ حبّة رمل!

ظلّ صوتُه حاضِرًا في أُذني وأنا أحاول النّوم من جديد: «من أجل تدنيس قُطعان الصّهاينة لمسرى الرّسول الكريم». وإذًا فهو ثأرٌ لهٰذا المسرى المُدنّس، للمسجد الأقصى الّذي هو آيةٌ في كتاب الله.

ليسَ له من رَسْمِهِ شيءٌ، يبدو قِصّةً مَرويّةً علىٰ لسانِ أجيالٍ قديمةٍ بدأتْ مع النّيران الّتي يجتمع حولَها الفَلاّحون للسّمر بعدَ يومِ حصادٍ طويلٍ

من أجل أنْ يقصُّوها عن النّضال، عن مواجهة الذّئاب، عن قِتال الوحوش الّتي تتربّص بهم، عن مقاومة أسباب الموت الّتي تنهضُ في وجوههم، عن التّعب من أجل الحياة، عن المسير من أجل الغاية، ثُمّ استمرّتْ تلك الحكايات جيلاً بعدَ جيل، كلُّ جيلٍ يحكي قِصّة كِفاحِه الخاصّة بهِ إلىٰ الجيل اللاّحق، وهٰكذا...

ثُمّ عَنّ ببالِ أحدِ هٰذه الأجيال أنْ يجعل لكلّ هٰذه الحكايات بطَلاً، فراحَ في البداية يأخذُ هٰذه القِصص ويجمعها ثُمّ يجعلُ هٰذا البطلَ راوِيَها، إنّ راوِيًا واحِدًا سيجعل هٰذه القصصَ حقيقيّةً أكثر، واضحة، سَهْلة الانتقال إلى الأجيال القادمة، مُركَّزة، ومُلهِمة، ومُثيرة في الوقت نفسه... هٰكذا تحوّلت الحكايات إلىٰ أساطير في الكِفاح، وهٰكذا تحوّل البطل إلىٰ أسطورةٍ ورمز.

ثُمّ نُسِيَ البطل الأوّل بعدَ تتابُعِ الأجيال، نُسِيَ اسمُه، وفُقِدَ رَسْمُه، ولم يبقَ منه إلاّ حكاياتُه، هي حكايات النّضال الّتي تتشابَه وإنِ اختلفتْ، وتتقابل وإنْ افترقت، وتلتقي وإنِ ابتعدتْ، الصّورة تتغيّر والمعنىٰ واحد، البطل ينسربُ في كلّ حكايةٍ مع كلّ جيل، ووجهه هو هو... ثُمّ عَنّ ببالِهم أنْ يُطلِقوا علىٰ هٰذا البطل الّذي تجتمع فيه هٰذه الصّفات كلّها اسمًا، فخافوا أنْ يحدثَ معه ما حدَثَ مع الأبطال السّابقين، إذ ما قيمةُ الاسمِ أمام الفعل الحقيقيّ، وما نَفْعُ اللّقب إذا كان يُغني عنه الأداء، فتواطأَتِ الأجيال بعدَ ذٰلك علىٰ أنْ يرووا هٰذه البُطولات دون أنْ ينسبوها إلى اسمٍ صريح، وإنْ كان ظِلُّ هٰذا البطل ما زال مُختبِئًا داخل هٰذه الحكايات يُطلّ برأسه مهما تقادَمَ الزّمن.

ثُمّ قال أحدُهم لا بُدّ من أنْ نُشيرَ إليه؛ بُطولةٌ دون بطلٍ كيفَ تكون؟

فاقترحَ أَمْثُلُهم أنّ يُسمّوه الرّجل الصّفر، أو رجل الظّلّ، أو الرّجل الأوحد، أو الرّجل الذّئب، أو البطل، وهٰذه تكفي...

من يومِها أُطفِئت النّار، ولم يعدِ الفلاّحون يجلسون حولَها يروون حكاياتهم، ولم تعدِ الأجيال تتناقل القصص القديمة، والبطولات الغابرة، صار لكلّ جيلٍ في أيّامنا هٰذه بَطَلُه، وصارتْ له حكايتُه، ومع أنّ النّار أُطفِئت، ولم يعدِ الفلاّحون من حقولهم، إلاّ أنّ الذّئاب لم تنقرض، ولم تتناقص، بل تزايدت، وصارتْ تدخل بين الإنسان وجِلده، وصارَ لا بُدّ من استِنْهاض الرّجل الصّفر من جديد، من أجل مرحلةٍ جديدةٍ أخرىٰ من النّضال للوقوف في وجه هٰذه الذّئاب المُتوالِدة.

أعرفُ (محمّد الضّيف) منذُ أكثر من ثلاثين عامًا. لا أريدُ أنْ أقول كم عمليّةِ اغتيال تعرّض لها. هٰذا أمرٌ طبيعيّ، تعرّض لمثلها مُقاوِمون آخرون، لٰكنّني أتحدّث عن الرّجل الصّفر، عن الرّجل الظّلّ. لا أحدَ يعرفُ شكله، ولا لونَ عينَيه، ولا موجةَ صوته، حتّىٰ صوتُه في المرّات القليلة الّتي تكلّم فيها، كانَ صوتًا ينتمي إلىٰ أسراره الّتي لا تنتهي أكثرَ مِمّا ينتمي إليه.

أعرفُه في أواسط التّسعينيّات. كان قد تحّول منذُ تلك الأيّام إلىٰ صندوق أسود، جرّة مملوءة بالأسرار والحكايا لم يُفتَح بابُها إلاّ بمقدار ما يسمح لنسمة هواءٍ أنْ تمرّ، كأنّ كلّ هٰذا الّذي فعله ليسَ إلاّ تلك النّسمة، وأعرفُ أنّ باب الجرّة لو فُتحَ نِصفُه فإنّه سيتحوّل إلىٰ إعصارٍ يقتلعُ كلّ شيءٍ في طريقه ويدمّره.

الرّجل الّذي ظلّ سِرًّا حتّىٰ عن نفسه، لم يكنْ يملك هاتِفًا نَقّالاً،

وإذا اضطُرّ أنْ يتحدّث عَبره، فإنّه لا يتحدّث أكثر من ثلاثين ثانية، نصف دقيقة كافية ليقول ما يريد، ثُمّ يتخلّص من الهاتف بِسَحقه، لم يتحدّث في هاتفٍ واحدٍ مرّتين، ولم يكنْ ينظر من نافذة، إنّ وجهه مُحرّمٌ حتّىٰ علىٰ إطار النّافذة، النّافذة الّتي قد تكون خائِنة في بعضِ اللّحظات الغادرة فيستلّل إليه العدوّ من خلالها، وتكون الضّربة اليتيمة الّتي تتسبّب في إنهاء حياته.

كيفَ هو شكله؟ كيفَ يمشي؟ كيفَ يأكل؟ كيفَ ينام؟ كيفَ يضحك؟! هل يضحك بالفعل مثل بقيّة النّاس؟! كيفَ يربطُ ألفَ خيطٍ صعبٍ في طرف إصبعه؟ لا يملكُ أحدٌ جوابًا، ولا حتّىٰ أقرب النّاس إليه، أو الدّائرة الضّيّقة المُحيطة به. الأصح أنّ نقول إنّه لا يوجَد أحدٌ قريبٌ منه، إنّه ليسَ قريبًا حتّىٰ من نفسه، مُنغلقٌ عليها كأنّه صخرةٌ صَلدة عصّية أنْ تُمسّ فضلاً عن أنْ تُفتَح أو تُكسَر. ومن هو إذًا؟ سِرّ من أسرار الله. ومَنْ يستطيع أنْ يصعدَ إلىٰ ذٰلك السّر أو يغوصَ فيه ليرىٰ طرفَ خيطٍ من شخصيّته؟ لا أحد. نفحةٌ علويّة تُحَسُّ ولا تُرىٰ. تلمسُ أثرها على الأرض دون أنْ تقبضَ كَفٌّ علىٰ أثرها الهارب. كيف لبشريّ من لحمٍ ودم ومشاعر وأحاسيس أنْ يختفي عن الأنظار ثلاثين عامًا؟! كأنّه اسمٌ دون جسد، حُفِر ذٰلك الاسمُ علىٰ صخرة المناضلين النّادرين دون أنْ يكونَ له وجود. أعني وجودًا فيزيائيّا كوجود أيّ بشريٍّ آخَر. كيفَ يُمكن لروحٍ سجينةٍ من الأساس داخل جسدها الفاني أنْ تجلسَ في بقعةٍ ليستْ أكثر من مترين مُربّعين علىٰ عمق سبعين مترًا أربعين يومًا مُتواصِلة دون أنْ ترى الشّمس أو تشمّ الهواء الطّبيعيّ؟! إنّه جنون؛ جنونٌ تشكّل علىٰ هيئة رجل، لٰكنّه رجلٌ ليسَ له نظير، ولا يُمكن أنْ تجدَ له نظيرًا